سلسلة حياة

الرسول وأهل بيته (ع)

خاتم النبيين

محمد بن عبدالله (ص)



دار المحجة البيضاء

ShiaKids.Net

كانَ الجدُّ العطوفُ، ينتظرُ بفارغِ الصبرِ، ولادةَ الحفيدِ الصغيرِ، ويترقَّبُ بقلقٍ شديدٍ، إطلالتَه عليه. لم يكن هناكَ ما يَشغَلُ بالَهُ غيره، أو يُدخِلَ السرورَ عليه سواهُ.

لقد وُلِدَ الصَّبي يتيماً، تُوفي والدهُ قبلَ ولادتهِ بشهورٍ. وتركتْ هذه الوفاةُ المبكرةُ جرحاً عميقاً في قلبِ الجدِّ لم يستطعْ رُغمَ شيخوختهِ أنْ يتناساهُ. وشعرَ أنَّ السماءَ، ربما أرادت تعويضهُ عن ابنهِ عبد الله بولدهِ محمد، فأحبَّه حباً جماً، وتعلَّق به تعلقاً كبيراً.

وقد نشأ هذا الصبيُّ في البادية، وعاشَ في كَنَفِها كأيِّ بدويٍّ صغيرٍ. أرضعتهُ (حليمة) المرأةُ الفاضلةُ الطيّبةُ، بعدَ ثلاثةِ أيامٍ من ولادتهِ. وانتقلَ معها إلى بيتِها في ديارِ بني سَعْد. عاشَ هناكَ مع صغارِها حياةً خشنةً، لكنَّها كانت بالنسبةِ إليه جميلةً صافيةً. تعلَّم فيها الكلامَ الفصيحَ والعاداتِ البدويةِ، ونشأ صحيحَ الجسمِ والذِّهنِ والفؤادِ.

عندما عادَ بعدَ سنواتٍ، تلقَّتْهُ أمُّه آمنة، وجدُّهُ عبدُ المطلبِ بالأحضانِ. كان قد أصبحَ جميلاً، ساحراً فاتناً، وكانَ النَّظرُ إليه يَملأُ النَّفسَ سعادةً وبهجةً. أحسَّت الأمُّ، أنَّها قد وُلِدَت من جديدٍ، وقرَّرَتْ أنْ لا تتركَهُ يغيبُ عن ناظريها بعد الآن.

بين الأمِّ والجدِّ. كانَ الصبيُّ يعيشُ سعيداً. لم يَشْعُر يوماً أنّه يتيم. كان يسألُ أمّهُ أحياناً عن والدِه، فتردُّ عليه:

ـ «أنْتَ تُشبهُهُ تماماً يا مُحمد. ولكنّكَ أجملُ منهُ بكثيرٍ».

ولكنَّ هذهِ السعادةُ لم تَدُمْ طويلاً. فَقَدْ تُوفِّيَتِ الأمُّ فجأةً. وهو ما يَزالُ في السادسةِ من العمرِ. وأحسَّ لأوَّلِ مرّةٍ بالحزنِ.. وامتلأتْ روحُهُ بالمرارةِ. وضربَ الجدُّ كفاً بكفٍّ، وغَرِقَ هو الآخرَ بالألمِ.

ـ «ماذا يُرادُ بولدي هذا؟ يموتُ أبوهُ وهو جنين. ثم تموت أمُّه. وهو ابن ستِّ سنينَ؟».

ويعتزمُ الجدُّ، أن يتولى بنفسِه رعايةَ الصغيرِ، حتّى ينسيه أحزانه. ويُسرعَ الجميعُ، بناءً على رغبتِه، لخدمتِه، والاهتمامِ به. وحينما أحسَّ بدنو أجلِه، جمعَ أولادَهُ العشرةَ، وأوصاهم بابن أخيهم، قائلاً:

ـ «إنّي قَدْ تركتُ لكم الشَّرفَ العظيمَ. الذي تفخرون به أمامَ النّاس».

ثُمَّ اختارَ أبا طالبٍ، عمَّ الصبيِّ الشقيق، ليكونَ كافلاً لَهُ بعدَهُ. وبعد مدّةٍ، توفي الشيخُ الوقور، ولحفيدِهِ من العمرِ ثماني سنين. وأسرعَ أبو طالب لاحتضانِ الصبيِّ، وتخفيفِ حدّةِ الألم عنه.. فأعطاهُ هو وزوجتهُ فاطمة بنت أسد، الكثيرَ من الحنانِ والحبِّ.

ShiaKids.Net

وفي بيتِ أبي طالبٍ، نما الصبيُ وترعرع، حتى أصبحَ رجُلاً يشارُ إليه بالأصابع

وحاولَ الشابُ أن ينخرطَ في العملِ،

ليكسبَ قوتَهُ. فأخذَ يرعى الأَغنامَ أولاً.

ثُمَّ انتقلَ للعملِ مع عمِّهِ في التجارةِ،

وارتحلَ معهُ إلى الشامِ في إحدى

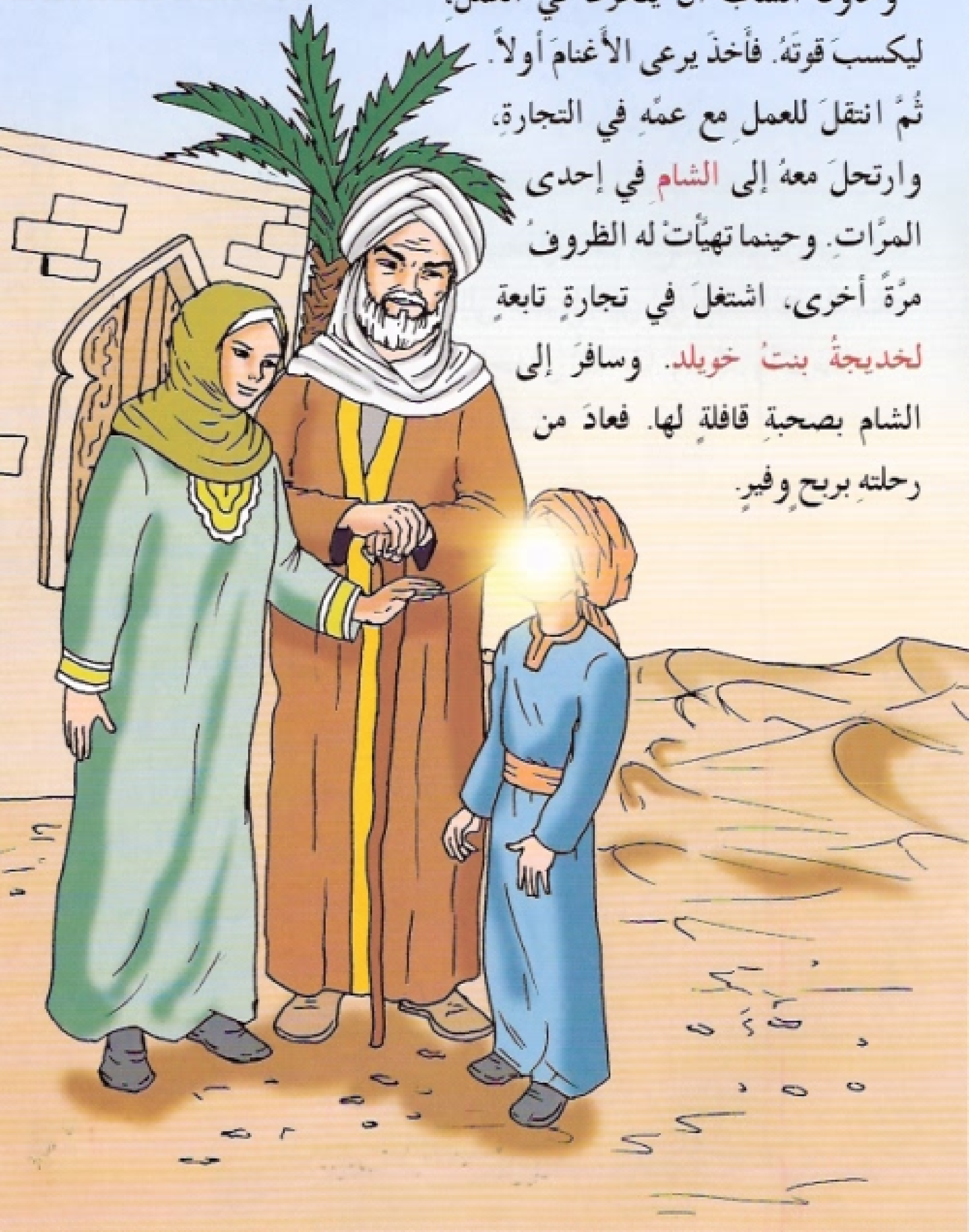
المرّاتِ. وحينما تهيّأتْ له الظروفُ

مرّةً أخرى، اشتغلَ في تجارةٍ تابعةٍ

لخديجةُ بنتُ خويلد. وسافرَ إلى

الشام بصحبةِ قافلةٍ لها. فعادَ من

رحلته بربحٍ وفيرٍ.



وربطة المحبةُ بين الشاب وخديجة، فتزوجا. وكان عمرهُ يتراوحُ بين الخامسة والعشرين والثلاثين. أما هي فلم تكن قد بلغت الثلاثين بعد. ورفرفت السعادةُ على هذا البيتِ. ونعمَ الاثنانُ بالهناءِ، ورزقا بخلفٍ صالحٍ كريمٍ. كانت جوهرتهُ الغاليةُ فاطمةٌ سيدة نساء العالمين!

وانضمَّ إلى هذا البيتِ، في ما بعد، طفلٌ صغيرٌ رائعٌ، هو علي بن أبي طالب. لقد شاءَ الرجلُ أن يردَّ إلى عمّه الجليل أبي طالب، جميلهُ الذي غمرهُ بهِ، عندما كان طفلاً. فاحتضنَ ابنه علياً، وأحبّه، وأكرمهُ. وكان عليٌّ يصفُ علاقتهُ بابن عمّه بالقول:

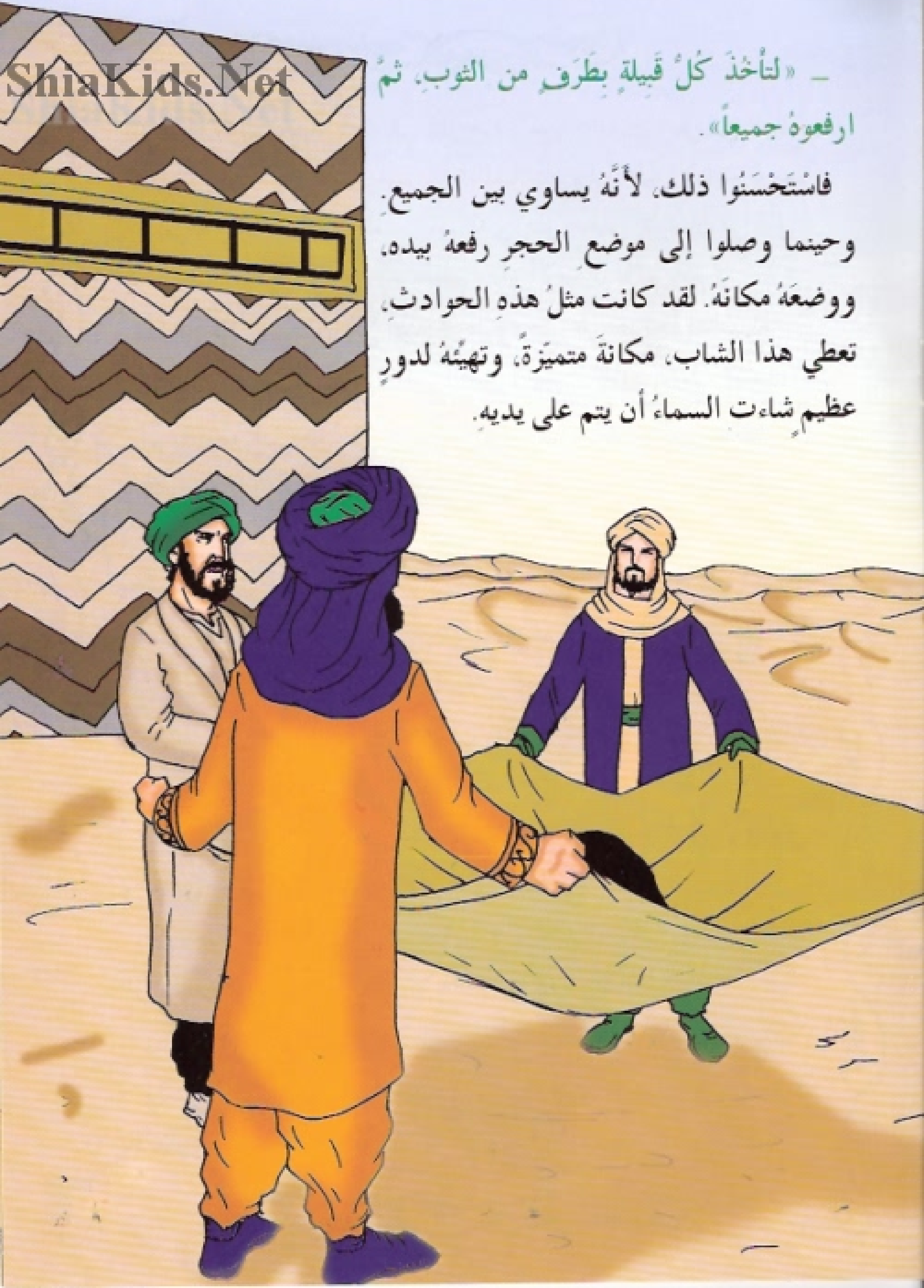
ـ «لقد كنتُ أتبعه اتباع الفصيل أثر أمّه».

وحدث في إحدى السنين أن تعرّضت الكعبةُ للانهيارِ، وكان سببَ ذلك وقوعُ سيولٍ جارفةٍ. فاجتمعت قريش، وقررت إعادةَ بنائها. واشتركَ في هذهِ العمليةِ عددٌ كبيرٌ من الناس بينهم الشابُ محمد.

فلما وصلوا إلى موضع الحجرِ الأسودِ، وهو حجرٌ مقدسٌ، نزل به جبرائيلُ من الجنةِ، اختلفوا على من ينالُ هذا الشرفَ العظيم. وكاد النزاعُ يتحوّلُ إلى قتالٍ، لولا أن اقترحَ عليهم أحدُ الأشخاصِ، أن يحكّمَ بينهم أولَ الداخلينَ على الحرمِ في اليوم التالي. فوافقوا على ذلك. وفي الصباحِ كانَ الرجلُ المطلوبُ هو محمد. فقالوا رضينا بالصادق الأمين حكماً. فطلبَ منهم ثوباً، فأتوه بثوبٍ عريضٍ. فأخذَ الحجرَ ووضعَهُ فيه بيدهِ ثم التفتَ إلى شيوخِ مكّةَ وقالَ لهم:

ـ «لتأخُذَ كُلُّ قَبيلةٍ بِطَرَفٍ من الثوبِ، ثمَّ ارفعوهُ جميعاً».

فاستَحْسَنُوا ذلك، لأَنَّهُ يساوي بين الجميعِ.
وحينما وصلوا إلى موضعِ الحجرِ رفعهُ بيده، ووضعهُ مكانَهُ. لقد كانت مثلُ هذهِ الحوادثِ، تعطي هذا الشاب، مكانةً متميِّزةً، وتهيِّئهُ لدورٍ عظيمٍ شاءتِ السماءُ أن يتم على يديه.



وحينما كان محمد يتعبَّدُ في غارِ حراءَ، نزلَ عليه جبرائيل في السابع والعشرينَ من شهرِ رجبٍ (سنة ٦١٠ للميلاد). وقرأ عليه الآيات ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

بَعْدها، عادَ النبيُّ (ص) إلى أهلِه، فَرِحاً، وَدخلَ على خديجةَ فقالت لهُ:

ـ «أبشر فوالله لا يفعلُ بكَ الله إلاّ خيراً، وأبشر فإنّكَ رسولُ الله حقّاً».

لَمْ يحاولِ النبيُّ (ص) في بدءِ دعوتِهِ أنْ يَستفزَّ المشركينَ، ففضّلَ أن يدعوَ إليه مَنْ يَعتقد فيهِ الخيرَ. وعلى مدى ثلاثِ سنينَ كان عددُ المؤمنينَ لا يزيدُ عن أربعينَ شخصاً معظمهم من الفقراءِ. وأخذوا عند ذاكَ يجتمعون في دارِ الأرقمِ بن أبي الأرقمِ في مكة، يتدارسونَ فيها القرآنَ، ويقيمونَ الصلاةَ ويتعلّمونَ مبادئَ العقيدةِ. ثم نزلت بعدَ وقتٍ يسيرٍ الآيةُ الكريمةُ: ﴿فاصْدَعْ بما تُؤمَرُ واعرضْ عن المشركينَ﴾ فأخذَ الرسولُ (ص) يجهرُ بدعوتِهِ بين الناسِ. وجمعَ في أوّلِ الأمرِ بني هاشمٍ، وبني عبد المطلبِ، وقال لهم:

ـ «أيُّكم يؤازرُني على هذا الأمرِ، على أن يكونَ أخي، ووصيّي، وخليفتي فيكُم من بعدي؟».

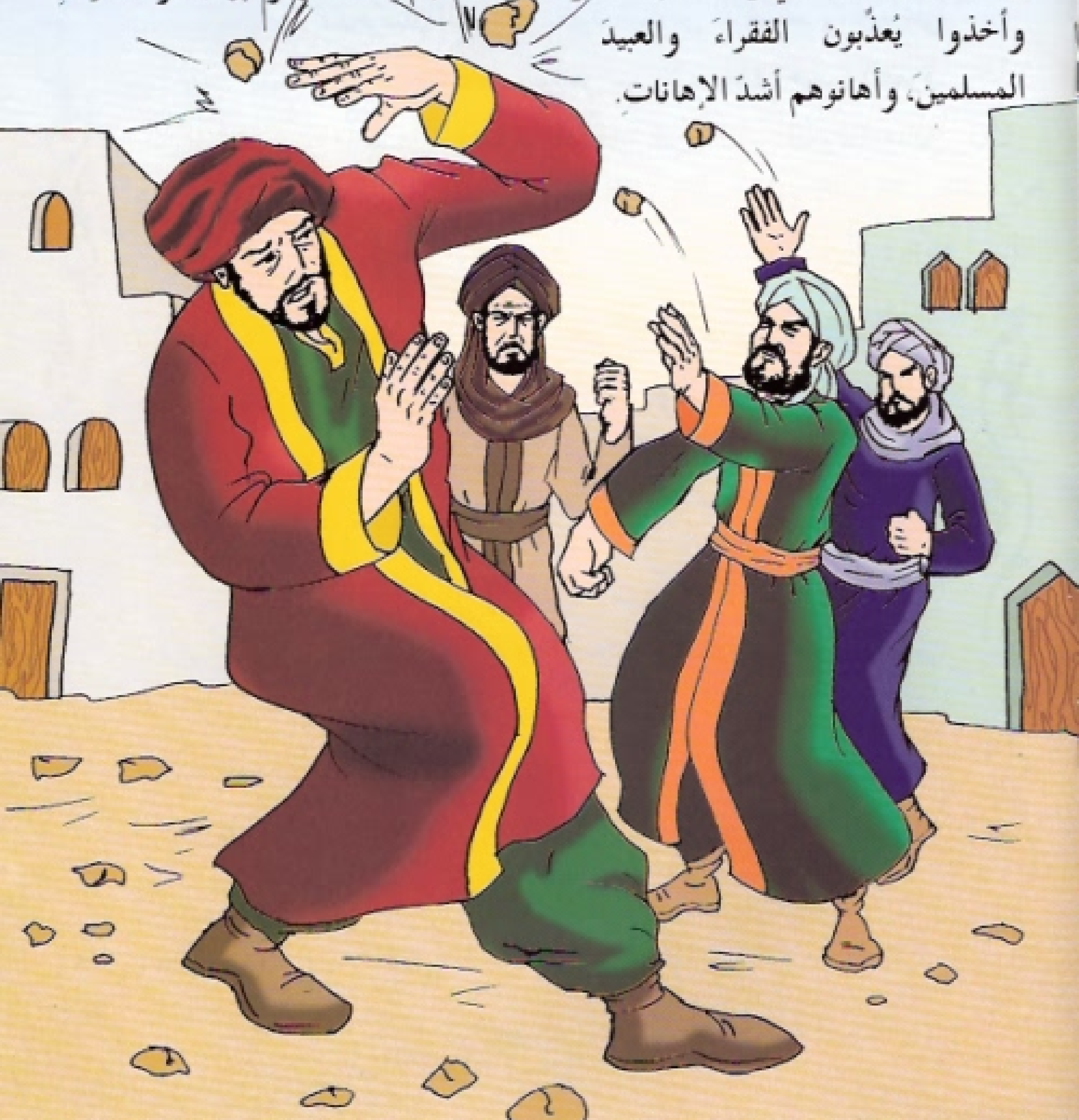
فَلم يجبْهُ أحدٌ غيرَ عليِّ بن أبي طالبٍ. وكرّرَ القولَ ثلاثَ مراتٍ، فأصروا على السكوتِ وأصرَّ عليٌّ على الإجابةِ. فرفعَ يدَهُ وقال:

ـ «إنَّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكُمْ، فاسْمَعوا لهُ وأطيعُوا».

ولكنَّ كثيرينَ منْ أبناءِ عمومتِهِ لم يستجيبوا لدعوتِه، وتعرضوا لهُ بالاستهزاءِ والسخريةِ، ومن بين هؤلاءِ، عمّهُ أبو لهب.

واجتمعَ كبارُ رجالاتِ قريشٍ، وقرروا الوقوفَ في وجهِ النبيِّ(ص)، ومحاربةِ دعوته وكانَ أوَّلَ ما فعلَهُ هؤلاءِ، أن طلبوا من عمِّهِ أبي طالبٍ، إيقافَ النبيِّ عن الدعوةِ للإسلامِ، مقابلَ إعطائهِ ما يَشاءُ من الأموالِ، أو المناصبِ. فقالَ قولَتَهُ الخالدةَ:

ـ «واللهِ يا عمّ، لو وضعوا الشمسَ في يميني، والقمرَ في شمالي، على أنْ أتركَ هذا الأمرَ، حتى يُظهرَهُ اللهُ أوْ أهلكَ فيه ما تركتُه». فلم تجدْ قريشٌ غيرَ أسلوبِ الإرهابِ والإيذاءِ تواجهُ بهِ النبيَّ وأصحابَه، فأخذوا يتعرضونَ لهم بالأحجارِ، والترابِ، والأشواكِ. وأخذوا يُعذِّبونَ الفقراءَ والعبيدَ المسلمينَ، وأهانوهم أشدَّ الإهاناتِ.



ولما لم يَجْدِ ذلكَ نفعاً، فرضوا عليهم الحصار. فلجأ المسلمون إلى شعب أبي طالب ثلاثةَ أعوامٍ من السَّنة السادسة، حتّى التاسعة للبعثة. وكانوا ينفقون خلالها من أموال خديجة، وأبي طالب. وتعرَّض المسلمون خلالها لأشدِّ أنواعِ الضيق حتى أخذوا يأكلون أوراقَ الشَّجر. وكانَ أبو طالب، وابنه عليّ، يحرُسانِ النبيَّ(ص) خوفاً عليه من الاغتيال. وسعى عليٌّ أثناءَ هذه المحنة، إلى جلب الطعام سراً من مكّةَ لا سيما في موسم العمرة. كانَ الرسولُ(ص) قدْ بعث بجماعةٍ من أصحابه إلى الحبشة، ليكونوا بعدين عَنْ أذى قريش. وقالَ لهم:

ـ «إنَّ بها ملكاً لا يُظلَمُ عندهُ أحدٌ».

وجعلَ على رأس هؤلاءِ المهاجرينَ جعفر بن أبي طالب، وعددهم ثلاثة وثمانونَ رجلاً وامرأةً، مع عددٍ من الأطفال. ولم يعودوا إلاّ في السنة الثالثة، أو السابعة للهجرة، في المدينة المنورة وقد أدّى هؤلاءِ دورهم في التعريفِ بالإسلام، والتبشيرِ به خارجَ الجزيرة العربية.

فُجِعَ الرسولُ(ص) بعدَ عشرة أعوامٍ من البعثة، بوفاةِ زوجتِه خديجة، فحزن أشدَّ الحزنِ، وتألَّمَ غايةَ الألم، ولَمْ يُخفِ مشاعرَهُ هذهِ عن الآخرين. فقد كانت خديجةُ دعامةً هامةً من دعائم الإسلام، أنفقت كُلَّ أموالها في سبيلِه، واستخدمتْ كُلَّ نفوذِها لخدمته.

وبعدَ شهورٍ من هذهِ الفاجعة، انتقلَ عمُّه الكريمُ أبو طالب، هو الآخرَ، إلى جوارِ ربه. ولم يكن الرسول(ص)، قد استفاقَ من مصيبته الأولى. فَسمّي هذا العام بعام الحزن. ولَقِيَ الرسولُ(ص) بعد وفاة عمِّه أبي طالب، الكثير



من الأذى من قريش، لم تكن تجرؤ على فعله في حياته.

وحدثَ تطورٌ كبيرٌ في سيرِ الدّعوةِ الإسلامية، عندما اجتمعَ النّبيُّ إلى ستّةٍ من أهلِ يثرب، جاءوا للحجّ في السنةِ الحاديةَ عشرةَ للبعثة. فآمنوا به، وصدّقوا دعواه. وفي العامِ التالي تضاعفَ العددُ فأصبحوا اثني عشر. وسُمّيت بيعتُهم للنبيِّ ببيعةِ العقبةِ الأولى. (والعقبة وادٍ ضيق بين مكة ومنى).

وفي العامِ الثالث عشر للبعثة أتى عددٌ كبيرٌ من مسلمي المدينة، وبايعوا النبيَّ بيعة العقبة الثانية. فدعوه إلى الانتقالِ إليهم على أن ينصروهُ، ويقفوا إلى جانبه في الشدّةِ والغنى وعاهدوهُ على السمعِ والطاعة، والأمرِ بالمعروفِ والنّهي عن المنكر.

أمرَ النبيُّ(ص) أتباعهُ بالهجرةِ إلى يثرب لا سيّما أولئكَ الذين كانوا يتعرّضونَ للضغط. فأخذوا يتوافدونَ على يثرب جماعاتٍ وأفراداً. ويتخلونَ عن كُلِّ ممتلكاتهم وأموالهم، وروابطهم الاجتماعية، في سبيل الدّين الجديدِ. ورُغم أنَّ قريش حاولت اعتراضَ سبيل المهاجرين، إلاَّ أنَّ معظمهم، تمكّنَ من الفرار، ولَمْ يَبْقَ بعد مدةٍ إلاَّ النبيُّ(ص) وعليّ(ع)، وعددٌ قليلٌ من المسلمينَ. واتخذت قريشٌ عندئذٍ قراراً يقضي باغتيالِ النبيِّ(ص)، في نفس الليلةِ التي نوى فيها على الهجرةِ، فخرجَ من دارِهِ دون علمهم، وتركَ علياً في فراشه.

وعندما فوجئ رجالاتُ قريش بهجرةِ النبيِّ، ووجودُ عليٍّ مكانَهُ، بُهتوا جميعاً، وقرروا اللحاقَ به. إلاّ أنّهُ نجا منهُم وواصلَ سيرَهُ إلى يثرب، فاستُقْبِلَ استقبالاً حافلاً. ومنذ ذلكَ الحينِ أصبحَ اسم يثرب المدينةَ المنورة.

وفي المدينةِ، قامَ الرسولُ(ص) بالكثيرِ من الأعمالِ، حتى استتبَّ له الوضعُ. ومن أهمِّها المؤاخاةُ بين المهاجرين والأنصار. فجعلَ لكلِّ مهاجرٍ أخاً من الأنصارِ يقاسمهُ مالَهُ، وحياتهُ. واحتفظَ لنفسه بعليِّ بن أبي طالب أخاً له، دون سائرِ المؤمنين.

كما بنى مسجدَ المدينة، ليكون داراً للعبادةِ، ومقراً للحكمِ. وبدأ في إعدادِ قوةٍ عسكريةٍ للدفاعِ عن المدينةِ.

وكانَ لا بدَّ من حدوثِ صراعٍ مسلّحٍ مع قريش، بعْدَ أنْ حاولَ المسلمون استردادَ ما تركوهُ من أموالٍ في مكة. وقد ابتدأ النشاطُ العسكري الأول، بإرسالِ سرايا قليلةِ العددِ، خرجت أولاهَا بعدَ سبعةِ أشهرٍ من الهجرةِ.

بقيادةِ حمزةَ بن عبد المطلب، وتضمُّ ثلاثينَ شخصاً.

ولكنَّ هذا النشاطَ المحدودَ سرعانَ ما تطوَّرَ إلى حربٍ فاصلةٍ حدثت في ١٧ رمضان في السَّنةِ الثانيةِ للهجرة قُربَ آبار بَدْر.

كانت عدّةَ المسلمين فيها ٣١٣ شخصاً يقابلهم حوالي ألفَ رجلٍ من المشركين، ولكنَّ المعركةَ انتهت بنصرٍ حاسمٍ للمسلمين. وكانَ لهذهِ المعركة، أثرٌ بالغٌ في رفعِ معنوياتِ المسلمين، وازديادِ أعدادهم.



أمّا قريش فعزمتْ في العام الثالث للهجرة على الانتقام، فجمعت ثلاثة آلاف رجل، وهجمت بهم على المسلمين قُربَ جبل أحد. ومع أنّ النّصر كان حليفَ المسلمين في البداية، إلاّ أنّ سيرَ المعركةِ، قد تغيّر بعد ذلك لصالح قريش. ولم تستطع قريش أن تحقق هدفها في القضاء على الرسول، أو دعوته، على الرّغم ممّا ألحقته من خسائر بالمسلمين. وفضّلت الانسحاب، مكتفية بما أحرزته من نصرٍ. واستشهد في هذه المعركة حمزةُ بن عبد المطلب، فتركتْ وفاتهُ أثراً بالغاً في نفوس المسلمين. وتوالت المعاركُ بعدَ ذلك تباعاً. فوقعت معركةُ الأحزاب، أو الخندق. وفيها نزلَ عشرةُ آلافِ مقاتلٍ من المشركين، أكثرُهم من قريشٍ وغطفان. وتسرّبت أنباءٌ عن تعاونٍ محتملٍ بينهم، وبين اليهود داخلَ المدينة.

قامَ المسلمون، بحفرِ خندقٍ عميقٍ حولَ المدينة. فتفاجأت الأحزابُ بذلك، وحُرمت من القدرةِ على شنّ هجومٍ مركّزٍ. واستطاعَ نفرٌ قليلٌ من الأحزاب، الدخولَ إلى المدينة عبرَ منافذَ صغيرةٍ في الخندق. كانَ أبرزهم عمرو بن ودّ العامريّ، أحد قادةِ قريشٍ المشهورين. وقد تغلّبَ عليه بطلُ المسلمينَ عليُّ بن أبي طالب، وقضى عليه في نزالٍ منفردٍ أمامَ الفريقين. فانهارتْ معنويات الأحزابِ وتسرّبَ إليهم الإحباطُ. ثم اجتاحتهم العواصفُ الترابيةُ، والأعاصيرُ، فتفرقوا.

ولم يكن الصّراعُ المسلّح فقط على المشركين. فقد انضمّ يهودُ المدينة، إلى حربِ المسلمينَ، بعد أن فزعوا من تضاعفِ قوتهم. وأوّلُ قبيلة تمّ إجلاؤها منهم كانت بنو قينقاع، الذين خرقوا العهودَ التي أعطوها للمسلمين. فأرسلَ إليهم النبيُّ(ص) ابن عمّه علياً(ع) فحاصرَهُمْ خمسَ عشرةَ ليلةٍ فاستسلموا. وتمّ نفيهم خارجَ المدينةِ. وتبعَ ذلك حربُ بني النضير، الذين حاولوا اغتيالَ النبيّ(ص)، ثمّ تصالحوا معَهُ وخرجوا من المدينة إلى خيبر. أما بنو قريظة، فقد تعاونوا مع قريش في وقعةِ الأحزاب. ففرضَ الرسولُ(ص) عليهما الحصار ثم استسلما على يد عليٍّ(ع)، وتمّ القضاءُ على جميع مقاتليهم من الرجال. وتوالت الحوادثُ بعد ذلك. فقد عقدَ

النبيُ(ص) صُلح الحديبية مع مشركي قريشٍ في العام السادس للهجرة.

أمّا في العام السابع، فقد توجّه لغزوِ خيبرَ، الحصن اليهودي المشهور. وفيه فتح الله لعلي بن أبي طالب(ع) أبوابَ الحصنِ، ومكّنه من قتل بطل اليهود المشهور (مرحب). ثمّ تصالحَ يهود فدك ــ وهي قريةٌ مجاورةٌ لخيبر ــ مع النبي على نصفِ أراضيهم. فوافقَ على ذلك. ومنحها لابنته فاطمة(ع) في حياته. وأصبحتْ هي المشرفةُ على أعمالِها. تُنفقُ مردودها من المحاصيل على بني هاشم.

لقد توّجَ النبيُ(ص) انتصاراتِه العسكريةِ بفتح مكّةَ في العام الثامن للهجرة. ولم يتّخذْ هذا القرار، إلاّ بعد أن خرقتْ قريش أحكامَ صُلحِ الحديبية.



وبفتحِ مكّةَ، أصبحَ المسلمونَ هُمُ القوةَ الرئيسيةَ في شبهِ الجزيرةِ العربيةِ. وبقيتْ بعضُ القبائلِ التي تمَّ إخضاعُها في ما بعد في غزوةِ (حنين). وجرت معاركُ أخرى بين المسلمين والروم، منها معركةُ (مُؤتة) في العامِ الثامنِ، و(تبوك) التي تمّت بعد فتحِ مكّةَ مباشرةً. ولم يشاركْ فيها عليّ بل تركَهُ الرسولُ(ص) والياً على المدينةِ. ولم يحدثْ فيها قتالٌ مع الرومِ. إلاّ أنّهُ تمّ فيها إخضاعُ القبائلِ النّصرانيةِ، وتحويلها إلى حلفاءٍ للدولةِ الإسلاميةِ.

وحجّ النبيُّ في العامِ العاشرِ للهجرةِ، واصْطَحَبَ معهُ نساءَهُ، وابنتَهُ فاطمةَ الزهراءَ(ع). وفيها ألقى خطبته المعروفة بخطبةِ الوداعِ. ولمّا أتمّ حجّته، خرجَ من مكّةَ قاصداً المدينةَ، ومع جموعٍ غفيرةٍ من المسلمين. ونزلَ في مكانٍ قريبٍ من الجحفةِ يقالُ لها غديرُ خمٍّ. وهناكَ أطلقَ نداءَهُ العظيم «مَنْ كُنتُ مَولاهُ فهذا عليٌّ مَولاهُ» ونزلَتْ آخرُ آيةٍ من القرآنِ الكريمِ: ﴿اليومَ أكملتُ لكُمْ دينَكُمْ، وأتممتُ عليكُم نعمَتي ورضيتُ لكُم الإسلامَ ديناً﴾.

وأقبلت جموعُ المسلمين تهنئُ علياً بالولايةِ، ودخلوا عليه في خيمته أفواجاً أفواجاً لتهنئته، والتّسليم عليه بإمرةِ المؤمنين.

اشتدَّ المرضُ بالنبيّ(ص)، فمكثَ في دارِهِ ثلاثةَ أيامٍ. ثم خرجَ إلى المسجدِ معصوبَ الرأسِ، متكئاً على عليٍّ والفضلِ بن العباس(ع)، حتى صعد على المنبرِ، فجلسَ عليه، وأخذَ يوصي الناس وصيتهُ الأخيرةَ. وقال:

ـ «معاشرَ الناس ليس بين اللهِ، وبين أحدٍ شيءٌ يعطيه به خيراً، أو يصْرِفُ به عنه شراً إلاّ العملُ».

ثُمّ نزلَ، فصلّى بالنّاس صلاةً خفيفةً ودخلَ بيتهُ. وفي اليومِ التالي، صلّى بالنّاس وأمرَهُم بإنفاذِ جيشِ أسامةَ بن زيد، ووبخهم على تأخيرِهِ. ثم أُغمي عليه، فوضعَ عليٌّ(ع) رأسَهُ في حجرِهِ، وهو في أشدِّ حالاتِ الحُزنِ حتى فارقَ الحياةَ.

كانت وفاتهُ صدمةً كُبرى للمسلمينَ في أرجاءِ الجزيرةِ. وظنّ بعضهم، أنّه لم يمت، في ما اعتقدَ آخرونَ أن وفاتَهُ بابٌ للارتدادِ عن الإسلامِ، أو أنّه مناسبةٌ للهجومِ على كرسيِّ الحكمِ في ما كان آلهُ وذووهُ، يعيشونَ أصعبَ لحظاتِ حياتهم. يشاركهم في ذلك قلّةٌ من المؤمنينَ الصادقينَ الذين فقدوا بوفاتِهِ، نبيّهم العظيم، وقائدهم الشّجاعِ، وسيّدهم الذي لا يُعوّض.